ظَـنُّ الـسَّـوْءِ / جُـنَـيْد سُعاوِي (تَـرْجَـمَة: أُورْخان مُـحَمَّد عَلي)

في سَنَواتِ دِراسَتي الجامِعِيَّةِ كُنْتُ أَحْيانًا أُحِبُّ أَنْ أَقْطَعَ الطَّرِيقَ مِنَ المِنْطَقَةِ الَّتي أَسْكُنُ فِيهَا مَشْيًا على الأَقْدامِ حَتَّى الجِسْرِ الَّذي يَصِلُ بَيْنَ ضَفَّتَيْ الْخَلِيجِ ، وَأَنا أُشاهِدُ الَّذينَ يَصْطَادُونَ السَّمَكَ حَتّى أَصِلَ إِلى الْجَامِعِ الْمُجَاوِرِ لِلسُّوقِ المِصْرِيِّ ...

كَان جَوُّ هَذا الْجَامِعِ يَغْسِلُ رُوحِي وَيبَدِّدُ الْجَوَّ الثَّقِيلَ الَّذي يَغْشَاني مِنْ دُروسِ الْجَامِعَةِ في سَاعاتِ النَّهارِ ، وَيُسَرِّي عَنْ نَفْسي فَأُحِسُّ بِلَذَّةِ الْاِشْتِراكِ في الطُّمَأْنِينَةِ القَلْبِيَّةِ الَّتي وَجَدَها آلافُ الْمُصَلِّينَ في هَذَا الْجَامِعِ مُنْذُ عِدَّةِ عُصورٍ وَحَتَّى الآنَ.

وفي أَحَدِ الأَيَّامِ جِئْتُ إِلى الْجَامِعِ وَتَوَجَّهْتُ إِلى مَكانِ الْوُضُوءِ فإِذا بِي أَجِدُ في طَرِيقِي شَابًّا قَدِ انْسَدَلَ شَعْرُ رَأْسِهِ حَتَّى مَنْكِبَيْهِ .. كَان مَنْظَرُهُ بِقَمِيصِهِ الْمُزْهِرِ يُشْبِهُ مَنْظَرَ سَائِحٍ غَرْبِيٍّ ... ولكِنَّهُ كَان يَتكَلَّم التُّرْكِيَّةَ .. كانَ وَاحِداً مِنَّا ... شَعَرْتُ فَجْأَةً بِالدَّمِ يَصْعَدُ إِلى رَأْسِي مِنَ الغَضَبِ ، وَبَدَأْتُ أُتَمْتِمُ – بَعْدَ أَنْ أَزَحْتُهُ عَنْ طَرِيقي بِخُشونَةٍ– وَكَأَنَّني أَتَعامَلُ مَعَ عَدُوٍّ .. غَمْغَمْتُ وَأَنا أَهِمُّ بالدُّخولِ إِلى الْجَامِع:

– أَيُّها الْبائِسُ الْمِسْكينُ الْمَزْهُوُّ بِنَفْسِهِ! ... تُرَى ؛ ابْنُ أَيِّ عائِلةٍ أَنْتَ ؟ وَلَكِنَّنا نَنْتَظِرُ جِيلاً مِنْ نَمَطِ هَذه السَّيِّدَةِ الْوَاقِفَةِ هُنَاكَ.

كُنْتُ أَعْني بِهَذِه السَّيِّدَةِ ، سَيِّدَةً أَنِيقَةً سَتَرَتْ شَعْرَ رَأْسِها بِخِمارٍ وكانَتْ تَنْثُرُ الْحَبَّ لِلْحَمامِ قُرْبَ الْجَامِعِ.

كُنَّا في السَّبْعِينِيَّاتِ، وكانَتِ النِّساءُ الْمُسْتَتِراتُ قِلَّةً نادِرَةً.. وَيَجْلِبْنَ الاهْتِمامَ ، وَعِنْدَما عَقَدْتُ مُقارَنَةً بَيْني وَبَيْنَ هذا الشَّابِّ ذِي الشَّعْرِ الطَّوِيلِ أَحْسَسْتُ أَنَّني في مَقامِ الأَوْلِياءِ بِالنِّسبَةِ لَهُ ، وَدَخَلْتُ إلى الجامِعِ وَأَنا أَزْهُو بِنَفْسِي؛ بَعْدَ أَنْ صَلَّيْتُ الْفَرْضَ وَسَلَّمْتُ ، فُوجِئْتُ بِدَرْسٍ مُدْهِشٍ سَأَتَذَكَّرُهُ طَوالَ حَياتِي ..

كانَ الشَّخْصُ الذي يَقِفُ بِجانِبي وَيَلْمَسُ كَتِفُهُ كَتِفِي والَّذي كُنَّا نَسْجُدُ مَعاً لله ؛ هُوَ ذلِك الشَّابُّ ذو الشَّعْرِ الطَّوِيلِ الَّذي اغْتَبْتُه قَبْلَ قَليلٍ دُونَ رَحْمَةٍ. وَكَأَنَّ اللهَ تَعالى وَضَعَهُ إلى جانِبي دُونَ آلافِ الْمُصَلِّينَ ، لِكَيْ يُبَيِّنَ لي مَبْلَغَ الخَطَأِ الْكَبِيرِ الَّذي ارْتَكَبْتُهُ. وَمِنْ شِدَّةِ خَجَلي فَقَدْ أَسْرَعْتُ بِمُغادَرَةِ الْجامِعِ دُونَ الْقِيامِ بِالتَّسْبِيحاتِ الْمُعْتادَةِ بَعْدَ الصَّلاةِ

وَهُناك خارِجَ الْجامِعِ كانَتْ تَنْتَظِرُني مُفاجَأَةٌ أُخْرَى ؛ تَمَثَّلَتْ بِتِلْكَ السَّيِّدَةِ الَّتي أُعْجِبْتُ بِتَسَتُّرِها وافْتَخَرْتُ بِها ، كانَتْ تَقِفُ في طابورٍ أَمامَ كِشْكِ بَيْعِ الْيانَصيبِ تَنْتَظِرُ دَوْرَها لِشِراءِ وَرَقَةِ الْيانَصيبِ .

وَتَساءَلْتُ في نَفْسي : أَكانَ هُناكَ مَحَلٌّ أَوْ مَوْقِفٌ يُسِيءُ إلى مِثْلِ هَذا الزِّيِّ الإِسْلامِيِّ الْمُبارَكِ أَكْثَرُ مِنْ هَذا الْمَوْقِفِ؟ ..

وَلِذُهُولي مِنَ الْمُفاجَأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ عِشْتُهُما الْوَاحِدَةَ تِلْوَالأُخْرَى فإِنَّني لَمْ أَجِدْ في نَفْسِيَ الْجُرْأَةَ لِنَصيحَةِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ ، كَمْ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّني اقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَقُلْتُ لَها:

أَدْرِكِي قِيمَةَ ما تَلْبَسِينَ مِنْ زِيٍّ إِسْلامِيٍّ وَاحْذَرِي القِمارَ والتَّناقُضَ ،،، لَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ . وَغادَرْتُ الْمَكانَ وَوَخْزُ ضَميرِي يُؤْلِمُنِي كَأَنَّه يَقُولُ لِي : أَرَأَيْتَ كَيْفَ أَنَّ الظَّاهِرَ لايَعْكِسُ الْحَقِيقَةَ دَائِماً ، وَأَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ!...